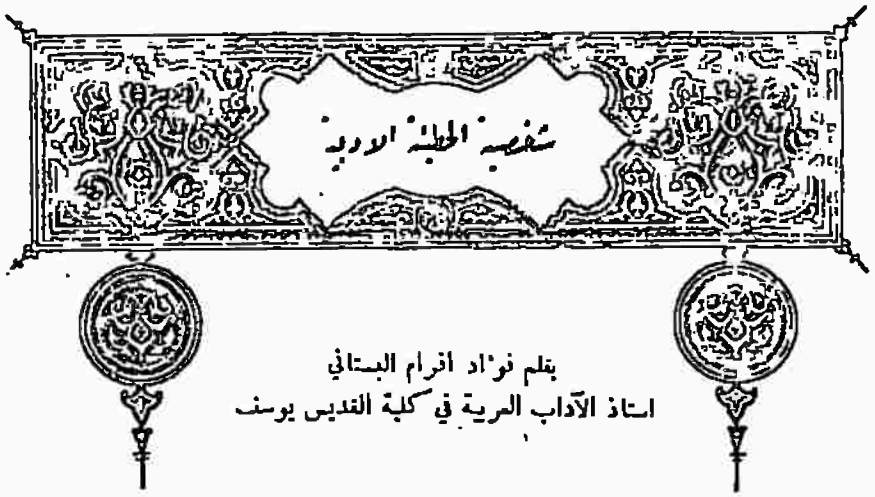

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

للحُطَيئة شخصية ادبية من اعق الشخصيات الجاهلية تأثيراً في المتأدبين ، واشدّها اجتذاباً لعقول المطالعين ، على ما فيها من غرابة اطوار وشذوذ اخلاق ، وما اكتنفها من سوء تقدير واحتقار . فرأينا ان نجتهد في تحديدها وسرد ميزاتها ، مستندين من جهة الى ما نعرفه من صفات الحطيئة واخلاقه ، ومن جهة اخرى الى ما وصل الينا من شعره .

صفاته واخلاقه

سوء خَلقه وخُلقه — بخله

كان الحطيئة قصيراً ، دميماً ، اقمح ، اي بارز اللحي الاسفل ، قبيح المنظر ، يلبس خشن الثياب وخلقها ؛ فكان رثّ الهيئة ، « لا تأخذه العين » ، على قول صاحب الاغاني[1] . يجمع الى ذلك خبث الاصل ، وفساد النسب ، فعدم العصبية لقبيلة او لمذهب ، فدناءة الاخلاق ، والنفاق في الدين ، والعقوق ، وما الى ذلك مما ينتج عن سوء المنشأ كعادة التشرّد ، والاحتيال على الكسب دون تمييز بين الحلال والحرام ، احتيالاً ادّى بالحطيئة الى الحرص والجشع والبخل حتى انه كان ، على رغبته في ضيافة الغير ، لا يضيف احداً ؛ بل ربما طرد من قصده اقبح طرد كما فعل بابن الحمامة ، وقد مرّ به ، وهو جالس

(١) الاغاني ٢ : ٥٢ .

بفناء بيته ، فقال: « السلام عليكم . » فقال الحطيئة : « قلتَ ما لا يُنكر . » قال : « اني خرجت من اهلي بغير زاد . » فقال: « ما ضمنت لأهلك قِراك . » قال: « افتأذن لي ان آتي ظلّ بيتك فاتفيأ به ؟ » قال : « دونك الجبل يفي عليك . » قال : « انا ابن الحمامة . » قال : « انصرف ، وكن ابن اي طائر شئت ! »[1]

اما حين لم يكن يتوفق الى طرد ضيفه فكان يهجوه ، بعد ان يقريه ، هجاء مرّاً ينغّص عليه القرى ، كما فعل بابن اعبي فقال فيه من ابيات :

لما رأيت ان ما يبتني القرى ... وان ابن اعبي ، لا محالة ، فاضحي
شددت حيازيم ابن اعبي بشربة ... على ظمأ ، مدّت اصول الجوانح[2]

ولم يلبث ان عُرف ذلك منه ، فتجنّب الناس ضيافته.

كفره بالنعمة

ومن نتائج لؤمه انه كان سؤولاً مُلحفاً ، كافراً بالنعمة بعد ان ينالها ، كما صوّره ابدع تصوير صاحب رسالة الغفران ، اذ خلّصه الى النعيم ، لصدقه في هجاء نفسه ، ولكنه اقامه « ببيت في اقصى الجنة كأنه حشّ امة راعية » ، واظهره رجلاً « ليس عليه نور سكّان الجنة ، وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاكٍ » . وجعله يجيب ، اذ يُسأل عن رضاه بهذا المقام الحقير ، فيقول ، وفيه اجلّ بيان لكفره بالنعم : « والله ، ما وصلتُ اليه الا بعد هياط ومياط ، وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت انها لم تكن ! »[3]

رقة قلبه

على ان هذا الرجل اللئيم الطباع ، الخبيث اللسان ، المنافق في دينه ، الذي عقّ امّه ، ولم يعرف اباه ، كان رقيق القلب احياناً ، شفيقاً ، عطوفاً على امرأته واولاده كما تدلنا حادثته مع امرأته ، عندما همّ بالسفر فاتته ، وقد قدّمت له راحلته ليركب ، فقالت :

اذكر تمثّلنا اليك وشوقنا ... وارحم بناتك ، انّ صغارُ !

---

١) الاغاني ٢ : ٤٦ ٢) الروائع ٢٩ : ٢٤
٣) ابو العلاء المعرّي : رسالة الغفران – في الروائع ١٧ : ٢٤.

فقال : « حطأوا ، لا رحلت لسفر ابداً. »[1] ، وكما نستنتج من رقة تلك الابيات التي خاطب بها عمر من سجنه ، اذ تذكر اولاده ، فحنّ قلبه اليهم وصاح :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ زغب المواصل ، لا ماء ولا شجر !

وكثيراً ما يشبههم بافراخ القطا ، ويذكر انه انما يستجدي الاكفّ ويقاسي مشاقّ السفر من اجلهم ، كما قال في مدحه الوليد بن عقبة :

واني لارجوه ، وان كان نائياً ، رجاء الربيع انبت البقلّ وابله ،
لغُبٍ كاولاد القطا ، راث خلفها ، على عاجزات النهض حمر حواصله. (٢

واننا نحترم هذه العاطفة في اي شخص كان.

شعره

الديوان

جمعه – رواياته

اهتمّ لتوفير القرن الثامن والتاسع بشعر الحطيئة اهتمامهم بغيره من الشعر الجاهلي والمخضرم . وكان قد دُسّ على الحطيئة شعر لا يُستهان به من قبل الرواة ، ولاسيما حماد ، كما سنرى . فانشطر الجامعون الى شطرين من حيث قبول هذا الشعر . فكان ابو حاتم السجستاني يشدّد في ذلك ، ويرفض كل ما يشكّ بصحته . وكان ابو عمرو الشيباني وابن الاعرابي يقبلان دون صعوبة ما يريانه محتملاً ، ويشيران احياناً الى اماكن الشكّ.

شرحه – طبعاته

اما الرواية الاولى فلم يصل الينا منها الا القليل المتفرّق . واما الثانية فقد اخذها ابن حبيب عن الشيباني وابن الاعرابي ، ثم شرحها ابو الحسن السكري . وهي التي اشار اليها حاجي خلفا ، ووصلت الينا باسم « ديوان

١) الاغاني ٢ : ٥١ – ومقدمة ديوانه لنولدكه ص ٣٨.
٢) الديوان (طبعة مصر) ص ٢٩ – راث خلفها : ابطأ شباباً ، لسوء غذائها وفقرها.

الحطيئة » . وقد طُبعت لاول مرة في القسطنطينية سنة ١٣٠٨هـ. (١٨٩٠) في جزئين بين يديننا الاول منهما ، « وعليها ايضاحات مختصرة » مأخوذة من شرح السكري . ثم قام المستشرق اغناطيوس غولدسيهر (I. Goldziher) فنشر الديوان نشرةً علمية في ليبسيك سنة ١٨٩٣ مع شرح السكري ، مقدماً عليه بحثاً ضافياً بالالمانية ، مضيفاً اليه حواشي مفيدة ، ملحقاً به ما يُنسب الى الحطيئة من الشعر غير الموجود في الديوان . وفي سنة ١٣٢٣هـ.(١٩٠٥) ظهرت له طبعة مصرية عني بها احمد بن الامين الشنجيطي ، مع شرح السكري ايضاً ، الا انها خلو من فوائد الطبعة الالمانية.

صحة نسبته

مما لا شك فيه ان الرواة تصرَّفوا في الكثير من شعر الحطيئة ، بل اضافوا اليه ما ليس منه . وهناك حديث ذكره ابن سلّام وصاحب الاغاني وغيرهما عن ابي عبيدة ، عن يونس ، مفاده ان حمّاداً قدم البصرة على بلال بن ابي بردة . فقال له : « ما اطرفتنا شيئاً ! ». فعاد اليه فانشده القصيدة التي في شعر الحطيئة[1] يمدح بها ابا موسى الاشعري . فقال له بلال : « قد علمت ان هذا شيء قلته انت ونسبته الى الحطيئة . والّا فهل كان يجوز ان يمدح الحطيئة ابا موسى بشيء لا اعرفه ، وانا اروي شعر الحطيئة ؟ ولكن دعها تذهب في الناس . » ووصله .[2] هذا الشائع - ولكن المدائني صحّح نسبة هذه القصيدة ؛ وعاد صاحب الاغاني[3] فذكرها للحطيئة دون اشارة الى ما تقدم سوى قوله : « انشدها حماد بلال بن ابي بردة ولم يكن عرفها فوصله » . ومهما يكن من صحة الحادثة فانها معقولة ، وليس تلك الفعلة بغريبة من حمّاد ، ونحن نعرفه ناحلًا للكثير من الشعر الجاهلي[4] .

---

١) الديوان (طبعة مصر) : ص ٢٤.

٢) ابن سلام : طبقات الشعراء (طبعة Hell) ص ١٥ - الاغاني ٢ : ٥١ ؛ و ٥ : ١٧٣ .

٣) الاغاني ١١ : ٢٦.

٤) راجع حادثته مع المهدي حين اقرَّ له بعضه ببعض ابيات اضافها الى زهير ، الروائع ٢٥ : ١٨ و ١٩.

هذا وفي الديوان عدة قصائد ذُكر في اولها انه لم يروها المفضل او لم يروها غيره ، وفيه دليل على مسوّغ الشكّ بصحتها . وهناك قصيدة قصصية من اروع ما كُتب في نوعها لم ترد في شرح السكري ، ولكن اضافها الى الديوان المستشرق غرلدسير عن بعض النسخ ، وفصل فعله الشنجيطي فأخذناها عنهما[1] . ولكن هذا لا يجزم بكونها لغير الحطيئة . كما ان تصرّف الرواة في غيرها لا يوجب الشك بكل الديوان . ومن الواضح ان اكثر قصائده ثابتة لا شكّ فيها كالسينية في هجاء الزبرقان ، وما شاكلها في النفس والطريقة ، وهو كثير .

قيمته

كان الحطيئة يلازم زهير بن ابي سلمى ويروي له[2] ؛ فتشرّب منه صفات في الصناعة الشعرية ، وروحاً في التأليف ، وذوقاً في الوصف ، سمت بشعره الى درجة عالية ، حتى عدّه كثير من شيوخ الادب في مقدّمة الشعراء . فجعله صاحب الاغاني من « فحولهم ومتقدّميهم ، متصرّفاً في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيداً في ذلك اجمع .»[3] وقال اسحق انه « اشعر الشعراء بعد زهير »[4] . اما كثيّر الشاعر فجاهر انه « اشعر الناس »[5] وكان الاصمعي يعجب بشعره ويتأسف لكونه افسده بهجاء الناس وكثرة الطمع ، وقد كتب له بليلة واحدة اربعين قصيدة[6] .

اما تأثير زهير فيه فواضح لمن تصفّح الديوان ، خصوصاً في القصائد المدحية ومقاطع الوصف ، وهو يتجلّى بأمرين : الاول من حيث الصناعة الشعرية وما اليها من السبك والتنسيق ؛ والثاني من حيث التعابير والاوصاف واستغلالها على طريقة خاصة ورثها زهير عن أوس ، واورثها ابنه كعباً ، وتلميذه الحطيئة .

ولا غرابة ان يتأثر الحطيئة باسلوب زهير اولاً ، وهو يرى فيه ابلغ ما

---

١) اطلبها في آخر هذا الدرس

٢) وقد لازم ابنه كعباً ايضاً وطلب منه ان يقول اياتاً يجعل فيها انه اول الشعراء ، ويثني بالحطيئة ، ففعل . ٣) الاغاني ٢ : ٤٣ . ٤) الاغاني ٢ : ٤٨ .

٥) » ٢ : ٦١ . ٦) » ٢ : ٥٠ .

وصل اليه الشعر ، اذ ذاك ، من متانة ، ورزانة ، وقوة سبك ، الى دقة في الصنعة وطول صقل يتراجع امامهما من اراد القول السهل السريع ، ومن رغب في الشعر الفطري « المطبوع » . أعجب الحطيئة بهذا الكمال في « الحوليات » ووقف على سره ، ولا سرّ فيه الا كثرة الشغل والتنقيح ، فاقبل يفضله ويقول : « خير الشعر الحولي المنقّح المحكّك »[1] ، واخذ يسير على منواله فينقّح شعره ويصححه حتى ادرك قوة سبك ، وسلامة تركيب كاد يتمهما عليه الاصمعي بقوله : « زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر ، لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . »[2] وعرفهما له ابن سلّام وابو عبيدة فقالا : « كان متين الشعر ، شرود القافية — اي سائرة في البلاد تشرد كما يشرد البعير — وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر الا وجدت مطعناً ، وما اقل ما تجد ذلك في شعره . »[3] يدلنا على ذلك ايضاً قول الحطيئة نفسه عن استاذه زهير ، وقد سُئل عنه فاجاب ، مفضلاً فيه تلك القوة العقلية والقدرة على تكييف الشعر كما شاء ، الناجمة عن كثرة العمل وطول الممارسة ، قال : « ما رأيت مثله في تكفيه على اكتاف القوافي ، واخذه باعنتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً . »[4]

وكان لا بدّ ان يمتدّ اثر زهير في نفس الحطيئة من الاعجاب بالصناعة الخارجية والسير على طريقها الى تذوّق اساليب التفكير نفسه والاخذ بنسق التصوير ايضاً ، فلم يلبث التلميذ ان اصبح ذا ذوق زهيري تامّ يستعمله في قصائده المدحية الفخمة السبك ، الجزلة المطالع ، وفي اوصافه الحسية ، الرضية الصور ، المستوفية كل شروط الفنّ ؛ حتى اصبح من الصعب علينا ، اذا قرأنا رائيته في مدح شماس :

عفا مسحلان من سُليمى فعاصره نمشّي به ظلمانه وجآذره

او داليته في مدح آل شماس ايضاً التي يقول فيها :

١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (طبعة de Goeje) ص ١٧
٢) ابن قتيبة : في الموضع نفسه .
٣) ابن سلّام : الكتاب المذكور ٣١ — والاغاني ٢ : ٤٦ .
٤) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ٦١ .

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجدُّ

والتي من صورها :

وان غاب عن لأي بنيضٌ كفتهم نوائبُ لم تطردْ شوارجم بعدُ

او سينيّته المشهورة في هجو الزبرقان ، او صوره الدقيقة التامة من مثل قوله دالاً على سرعة سفره :

وتُضحي الجبالُ النُّبر خلفي كأنها من الآل ، حُفَّت بالملاء المضدّر (١)

او ما شاكل ، اصبح من الصعب علينا ان لا نلمس فيها لمس اليد تأثير فنّ زهير الذي حدّدناه في مقدّمة الجزء ٢٥ من الروائع ، فليراجع . وهو تأثير داخلي عميق يتغلغل حتى الروح الشعرية نفسها ، بخلاف تأثير معلقة طرفة الذي نتحققه في دالية الخطيئة ، المأخوذ منها البيت السابق ، وهذا خارجي محض قد يظهر في توافق الالفاظ والتعابير بل الاشطر ، ولكنه لا يعدو ذلك . وكذا القول عن الابيات الحكمية التي كان يرغب فيها شاعرنا ، كقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقوله :

ولست ارى السعادة جمع مال ولكن التقيّ هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للاتقى مزيدُ
وما لا بدَّ ان يأتي قريبٌ ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ !

فهي ايضاً من تراث زهير الحكمي ، ولكن الحكمة فيها تألقت نوعاً ما ، اذا صحّ التعبير ، بفضل تأثير القرآن .

وكان يستعمل هذا الذوق الزهيري ايضاً في ما يتذوّقه من شعر سلفائه ومعاصريه ، بدليل ان كل الابيات التي ذكر الرواة ، في احاديثه المختلفة ، انه كان يفضلها على سائر الشعر ، او يفضل اصحابها على غيرهم بسببها ، لا تعدو ان تكون حكمية موجزة ، او تصويرية دقيقة من مثل :

لا اعدّ الاقتارَ عدماً ، ولكن فقد من قد رزيته الإعدامُ
و أفلحْ بما شئت ، فقد يدرك بالضـ ـعف ، وقد يخدعُ الأريبُ !
و من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيبُ !

(١) الديوان (طبعة مصر) ، ص ٢٤ .

وعدد كثير من ابيات زهير نفسه[1].

ولا يؤخذ من هذا ان الحطيئة تأثر بزهير الى درجة استغرقت شخصيته ، وقطعت عليه اساليب الابتكار . لا ! لقد عرف ان يستفيد من تلك المُثل ، ولكنه ظلّ محتفظاً بنفسيته الخاصة . استعمل الذوق الزهيري المكتسب ، ولكنه اضاف اليه ما امتاز به من رقة تجلّت في ابياته الاستعطافية ، ومن ولوع بالعبث ورغبة في الظرف رافقاه حتى منتهى حياته فظهرا في تلك الوصية الغريبة ؛ ومن مقدرة على استعمال التهكم الدقيق اللطيف الشديد المفعول في المتهكَّم عليه . هذا من اشهر ميزات الحطيئة في هجائه ؛ وهذا في عرفنا ، افعل سلاح كان يستعمله في رغباته الكثيرة فيرعب الناس ويجبرهم على قطع لسانه وشراء اعراضهم . ولقد كان يعرف من نفسه هذه المقدرة حتى انه كثيراً ما كان يجيب من يسأله عن اشعر الناس بان يخرج لسانه ، ويقول : « هذا ، اذا طمع ! »[2] واذا طمع معناها : اذا اراد الهجاء للتهديد . وايّ هجاء اوفر تأثيراً بتهكمه من قوله يحرّض القوم على الرِدّة ، فيجعل الاسلام « دين ابي بكر » ، ويجعل الخلافة « متاعاً يورثها بكراً بعد موته » فيقول :

اطنا رسولَ الله ، اذ كان بيننا ؛ فواعجبا ، ما بال دين ابي بكرِ ؟
ايورثها بكراً اذا مات ، بعده ؟ فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمة الظهرِ !

وكان احياناً يتلطف في التهكم حتى يخفى الا على اصحاب البصيرة ، كما في البيت الذي هجا به الزبرقان وهو :

دعِ المكارمَ ، لا ترحل لبغيتها واقعد ، فانك انت الطاعم الكاسي !

فشكاه الى عمر ، فأجبر هذا على استفتاء حسّان بشأنه . فسأله : « أتراه هجاه ؟ » قال حسان : « قد هجاه وسلح عليه . »[3] ومعنى البيت ان مروءة الزبرقان لا تعدو ان يأكل ويلبس .

بهذه الطريقة كان ينال غايته من الناس اذ يأتيهم عن طريق مقامهم في المجتمع وما يرغبون فيه من التبجح بكرم الفعال ، فيتهكم عليهم ، ويعبث

١) اطلب في ذلك ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ١٣٠ — والاغاني ٢ : ٤٧ و ٥٦ .
٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ١٣٠
٣) راجع في ذلك . الاغاني ٢ : ٥٢-٥٧ .

بهم ، وينعتهم بالبخل واللؤم ، فيهابونه . فلم يكن بحاجة الى الاقذاع في القول ، والفحش في الكلام ، والبذاءة في التعابير . وهذه صفة ثانية تميز هجاءه عن هجاء بعض من تقدّمه من الجاهليين كالمتلمس وطرفة ، ومن تلاه من الاسلاميين كالفرزدق وجرير وبشّار . وهي صفة مهمة لا نكاد نتصوّرها في شعر رجل كالحطيئة وقف حياته على الهجاء وجعل منه مهنته ومكسب معاشه . ولكنها امر واقع نفهمه اذا تعمقنا في درس الخلاف بين نوعي الهجاء المذكورين ، ومن ثم خلوّ هجاء الحطيئة من الفحش . ولعل السبب في ذلك ان الحطيئة كان نفعياً لا يتطلّب من وراء الهجاء الا الكسب . وكان الذين يهجوهم من السراة في قومهم ، واعظم ما يحافظون عليه سمعتهم من حيث الكرم والجود . وليس لهم على الشاعر سلطة امارة او ولاية يضغطون عليه بواسطتها . بينا كان الفرزدق وجرير يتهاجيان ، وكلاهما شاعر يتطلّب الزواية على خصمه ، فيهجو آدابه ، ويفحش في ذكر اصله ، ولا يتعرّض لبخله او كرمه لان هذا اقلّ ما يكترث له الشاعر . اما المتلمس وطرفة وبشّار ، فكانوا في بذاءتهم ، يهجون ملكاً او خليفةً ، وهم يقصّرون عن التأثير عليه بذكر البخل او نكث الوعود ، فلا يجدون ما يشفي غليلهم الا الانتقام منه بالسباب وفحش الكلام .

وعلى الجملة نرى شعر الحطيئة فخماً في المديح ، رقيقاً في الاستعطاف ، أليماً في الهجاء .

واذا ثبتت للحطيئة تلك القصيدة القصصية ، بل الرواية البديعة ، التي أُلحقت بديوانه ونشرناها في آخر هذا الدرس ، كان له فضلٌ جديد في الشعر القديم ، وهو فضل استعماله هذا النوع القصصي على اتمّ ما يتصوّره ارباب الفنّ ، اذ يورد رواية كاملة بمقدّمة يعرض فيها الاشخاص واحوالهم وزمانهم ومكانهم ، وعقدة يسرد فيها الحادثة ، وخاتمة يذكر فيها حال الجميع . كل ذلك باسلوب غاية في الموافقة من حيث الرشاقة والايجاز ، والتنقل بين الانشاء والخبر ، وحسن استعمال الالفاظ . فاذا ثبتت ، ولا نخالها الا ثابتة ، عرفنا ناحية جديدة من شخصية الحطيئة تفوق سائر نواحيها المعروفة ، وتدعو الادباء الى ان يهتموا بها مزيد الاهتمام .